الفصل الثالث

فرانسيس بيكون
(١٥٦١-١٦٢٦م)

فرانسيس بيكون

١٠- من أرسطو إلى عصر النهضة العلمية:

في نهاية القرن الخامس قبل الميلاد، حاصرت إسبارطة أثينا وألحقت بها هزيمة كبرى، فتحولت الريادة السياسية عن أثينا ولم يعد لها دور قوي يذكر، ولا حتى في الفلسفة والفن. وكانت قد توالت عليها النكبات، فأعدم سقراط في عام ٣٩٩ ق.م. ثم هُزم الأثينيون على يد فيليب المقدوني في عام ٣٨٨ ق.م. وأحرق الإسكندر مدينة طيبة بعد ذلك بثلاثة أعوام. وقد أدى موته المفاجئ بتسارع تفسخ الدولة اليونانية. وكان الإسكندر مستمرًا في وحشيته وصراعاته رغم أنه كان يحترم ثقافة بلاده ويحلم بنشرها في الشرق عندما انتصرت جيوشه الفاتحة هناك.

وقد طور الإسكندر التجارة اليونانية وزاد عدد مراكزها حول العالم. وكان يعتقد أن الفكر اليوناني سينتشر من خلال تلك المراكز مع التجارة أيضًا. لكنه لم يتوقع المقاومة القوية المستمرة من العقل الشرقي لذلك الغزو. وقد أغرته أوهام الشباب فتناسى عمق الحضارة الشرقية وجوهرها العتيق. لكن ما حدث هو العكس، فقد أثر الشرق في الإسكندر نفسه، فتزوج عدة زوجات هناك. كما حمل معه إلى أوروبا فكرة استقدمها من الشرق وهي حق الملوك المقدس. ثم فجأة أعلن نفسه إلهًا لليونان، فسخروا منه ولقي حتفه.

وقد انهالت الطقوس الدينية والديانات الشرقية على اليونان عبر الطرق التي شقها الفاتح الشاب إلى تلك البلاد. وتدفقت الأفكار الشرقية على أوروبا تدفقًا سريعًا، وانتشرت ديانات غريبة وانتشرت روح الاستسلام والجمود الشرقية في اليونان الخامدة اليائسة. ولم يكن تسرب الفلسفة "الرواقية" التي جاء بها التاجر الفينيقي "زينون" إلى أثينا في عام ٣١٠ ق.م. سوى أحد أوجه تغلغل الشرق الشديد داخل اليونان.

وقد أقام "زينون" فلسفته على الجبرية الجامدة التي وجد الرواقيون المتأخرون صعوبة في تمييزها عن القدرية الشرقية. وذات مرة كان "زينون" (الذي لا يؤمن بنظام الرق) يضرب أحد عبيده الذي أخطأ، فقال له العبد إني مسير ولست مخيرًا طبقًا لما تقوله فلسفتك، فرد "زينون" أنه هو أيضًا مسير في ضربه وليس مخيرًا.

ولم يكن كل الرواقيين على نفس النهج، فقد أنشأ "أبيقور" مدرسة ذات مبادئ معاكسة، وقد أقام مدرسته داخل حديقة جميلة. وكان يعلم طلابه مبادئ فلسفته وهم يعملون ويمشون في المدرسة. ومن آرائه أن الإنسان من الممكن أن يطبق الفلسفة على نفسه. وكان يعتقد باستحالة جمود المشاعر، وأن اللذة ليس من الضروري أن تكون حسية، بل من الممكن أن تكون الغاية الشرعية الوحيدة التي يمكن إدراكها بالحياة والعمل.

وعندما قام الرومان بنهب "هيلينا" في عام ١٤٦ ق.م. وجدوا هذه المدارس المتنافسة تتقاسم المجال الفلسفي. ولم يكن الرومان لديهم قدرة على التأمل والتفكير، فعادوا بآراء تلك المدارس الفلسفية إلى روما. وهكذا أصبحت الفلسفة الرائدة في أوروبا هي الفلسفة الرواقية. وقد نشرها "أبيقور" الذي عاصر "يوليوس قيصر" و"بومبي" وعاش في فترة اضطرابات شديدة. وكان "أبيقور" شديد الخوف والهلع ودائم الدعوة إلى الهدوء والسلام.

أبيقور

لم يمل أبيقور من ترديد أفكاره حول عدم وجود جحيم سوى ما هم فيه في روما من مشكلات واضطرابات، وعدم وجود آلهة سوى بعض الآلهة التي تعيش فوق سحاب حديقته !! وهي لا تتدخل في حياة البشر. كما رفض فكرة الجنة والنار وقال إن الإنسان يفنى ولا يتبقى منه سوى الذرات والفراغ والقانون. وكل الأشياء تفنى.

وكان يرى أن الأشياء تنمو بسبب التصاق الذرات الصغيرة ببعضها، وأنها تبدأ في الفناء بعد الاكتمال. كما أن العالم يتكون من ذرات تتساقط ببطء أو بسرعة ثم تفنى. كما رأى أبيقور أن الأرض بما عليها ستذهب بما فيها من إمبراطوريات ودول وبحار ومحيطات. نعم ... سيفنى كل شيء[1].

وقال أبيقور أن التطور والانحلال الفلكي أصل كل شيء. ويرى أن هناك الكثير من الوحوش غريبة الخلقة التي لها أرجل وأيدي غريبة الشكل. كما كان بعضها بلا فم أو أعين أو أيدي، لذلك فقد ماتت لأنها عجزت عن التناسل والاستمرار في الحياة. كما أن هناك حيوانات أخرى تستطيع البقاء والمقاومة إلا أنها تصبح فريسة لغيرها من الحيوانات. وبعد ذلك تندثر وتختفي من الطبيعة.

والشعوب أيضًا على نفس الحال، فبعضها ينمو ويتكاثر والبعض الآخر يتناقص ويزول.

وهنا يتضح لنا أن هذه هي روح أتباع "أبيقور". إلا أن هناك مذهب آخر من الرواقيين كان موجودًا في تلك الفترة من أمثال "أورليوس الإمبراطور" و"أباكتوس العبد". ولن نجد ما يقبض النفس في الأدب مثلما هو موجود في رسائل "العبد" وتأملات "الإمبراطور".

ويقال إن أباكتوس العبد كان عبدًا عند سيد يعذبه ذات مرة. وأنه كان يعذبه بليّ رجله. فقال له العبد برفق: "ستكسر رجلي .." فواصل سيده الضغط فكسرها. فقال له العبد برفق: "ألم أقل لك بأنك ستكسرها ؟" وهذا نوع من النبل الغامض والبلادة والهدوء الغريبين.

وقد فقدت الروح اليونانية الرومانية وثنيتها على يدي أباكتوس وأصبحت جاهزة

(١) - أبرأ إلى الله من كل ما قاله «أبيقور» في هاتين الفقرتين من كفر واضح ووصف ساذج لتعدد الآلهة لا يقبل به أي ذي عقل سليم. (المترجم)

لتلقي دين جديد. ولم يكن ما جاء به "أورليوس" في نفس الوقت بعيدًا عن تعاليم المسيح.

وفي نفس الوقت تغير كل شيء، فقد تحولت ثروة روما إلى فقر والنظام تحول إلى فوضى، كما تحولت القوة والمجد إلى تخلف ودمار. وتوقفت الطرق ولم تعد تبدو كخلية النحل بقوافل التجارة كما كانت من قبل. وبدأت القبائل الجرمانية في الهجرة عامًا بعد عام. وتحولت الثقافة الوثنية إلى الطقوس الدينية الشرقية، وتحولت الإمبراطورية إلى البابوية دون أن تشعر.

ساند ملوك أوروبا الكنيسة في القرون الأولى من نشأتها. وقد سلبتهم الكنيسة كل الحقوق تدريجيًا. فزادت ثرواتها وأصبح النفوذ الكنسي هو الأقوى على مستوى أوروبا كلها. وامتلأت خزائن الكنائس بالتبرعات والهبات التي قدمها لها التجار وأصحاب الثروات. وهكذا استطاعت الكنيسة السيطرة على أوروبا ألف عام وذلك بفضل دستورها وعقيدتها الموحدة. ولم يمر بالعالم -ولن يمر به- مثل ذلك التوحد الفريد.

وقد أحاطت الكنيسة بالعقل الأوربي بطريقة محكمة تشبه إحاطة الصدفة بالحيوان البحري. وهكذا تقيدت الحركة الفلسفية بقيود العقيدة المسيحية، فهناك افتراضات ومسلمات لا يجب تجاوزها أو التخلي عنها. لكن في القرن الثالث عشر الميلادي تنبه العالم المسيحي لما ترجمه العرب واليهود من فلسفة أرسطو. وكانت الكنيسة لا تزال قوية، فاستطاعت تحويل فلسفة أرسطو إلى فلسفة دينية مناسبة للقرون الوسطى.

وبعد ألف عام من الجهود المتواصلة، ازدهرت الزراعة والتجارة مرة أخرى، وكثر الإنتاج وزادت البضائع وتوسعت التجارة. أدت التجارة إلى نشأة المدن العظيمة وازدهارها مرة أخرى. وفتح الصليبيون طريقًا إلى الشرق، وأحضروا معهم عند رجوعهم من هناك الكثير من مظاهر التطرف والبدع الدينية فقضوا على الزهد والتقشف والعقيدة القوية.

استوردت أوروبا الورق من مصر بأثمان رخيصة جدًا، فحل الورق محل الجلود غالية الثمن، وقد أدى ذلك الغلاء فيما قبل إلى احتكار الرهبان للعلم والتعلم. وذلك بسبب أثمان الجلود الباهظة. ومع ظهور الورق نشأت الطباعة التي طال انتظارها وكانت رخيصة التكاليف، فانتشرت في كل مكان. وازداد الملاحون شجاعة وتقدمت أدواتهم

البحرية وآلات التوجيه البحري، فكانت الكثير من الأسفار البحرية وبدأ الانفتاح على العالم. وبدأ البحث العلمي وبخاصة في "الكيمياء". وتركزت أبحاث الكيمياء حول تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب. وتوقف الناس عن دراسة التنجيم وتحولوا إلى دراسة الفلك. كما تحولت الأساطير الخرافية التي تتحدث بلسان الحيوان إلى دراسة علوم الحيوان.

وقد بدأت اليقظة العلمية على أيدي روجر بيكون (توفى عام ١٢٩٤م) وليوناردو (١٤٥٢-١٥١٤م)، ثم اكتمل التقدم على أيدي كوبرنيكوس (١٤٧٣-١٥٤٣م) ودراسته للفلك. وكذلك على أيدي جاليليو(١٥٦٤-١٦٤٢م) وما تلاه من أبحاث جلبرت (١٥٤٤-١٦٠٣م) في المغناطيسية والكهربية وأبحاث "فاسيليوس" (١٥١٤-١٤٦٤م) في علم التشريح، وأبحاث هارفي (١٥٧٨-١٦٥٧م) حول الدورة الدموية.

زادت المعارف بشدة، وقل تفكير الناس في الخرافات والبدع. ولم يعد هناك حدود أمام ما يحرزه الإنسان من تقدم، فجابت السُفُن بحار العالم ومحيطاته وبدأ التقدم العلمي. لقد بدأ عصر الأمل، وبدأت مشروعات جديدة في كل مجال. وهنا ظهر "فرانسيس بيكون" أعظم العقول الحديثة، وبدأت النهضة التي جمعت بين العقل والذكاء.

• ٢- حياة فرانسيس بيكون السياسية:

ولد فرانسيس بيكون يوم ٢٢ من يناير عام ١٥٦١م، وهو من عائلة يورك في مدينة لندن. وولد في المنزل المملوك لوالده "نيقولاس بيكون" وكان حارسًا للختم الملكي للملكة اليزابيث لمدة ٢٠ عامًا من بداية حكمها، لكن شهرة الابن طغت على شهرة والده الذي لم يكن شخصًا عاديًا. وقد بلغت مواهب بيكون ذروتها عندما بلغ قمة المجد في السياسة والفلسفة. وكانت أمه ابنة المعلم الأول للملك إدوارد السادس. وكانت تجيد العديد من اللغات وتدرّس اللاهوت. فعلمت ابنها بنفسها ولم تدخر وقتًا ولا جهدًا في تعليمه وتثقيفه. لكن نشأته في عصر الملكة إليزابيث كانت المُعلم الحقيقي له. وكان لاكتشاف أمريكا وتحول جزء كبير من التجارة العالمية إلى المحيط الأطلنطي أثر في علو شأن تلك الدول التي تطل على الأطلنطي مثل: أسبانيا - فرنسا - هولندا - إنجلترا واحتلت

المكانة التجارية الكبرى التي كانت إيطاليا تحتكرها. وقد أدى هذا التغيير إلى انتقال النهضة من المدن الإيطالية: روما وميلانو والبندقية إلى مدريد وباريس وأمستردام ولندن.

وبعد تدمير الأسطول الأسباني في عام ١٥٨٨م[١]، انتشرت التجارة الإنجليزية في جميع بحار العالم، وازدهرت المدن الإنجليزية بالصناعات المتعددة، كما ازدهرت أنواع الأدب من شعر ونثر ومسرح. وانتشرت مسرحيات لشكسبير وبن جونسون وكثيرين جدًا غيرهم.

بداية الموهبة:

وفي سن الثانية عشرة أُرسل "بيكون" إلى كلية الثالوث ليدرس في جامعة كمبريدج، إلا أنه تركها بعد سنوات ثلاث وهو ساخط على نصوص كتبها ووسائل التعليم فيها. لذلك فكر وهو في السادسة عشر من العمر في وسيلة أفضل لتعلم الفلسفة بما يجعلها مفيدة للإنسان. إلا أنه جاءته وظيفة مناسبة رغم صغر سنه، فقبلها بعد تفكير طويل وكان سيساعد السفير الإنجليزي في باريس. وقد أشار في مقدمة كتاب له بعنوان "تفسير الطبيعة" إلى أهمية اتخاذ ذلك القرار الذي حوله من الفلسفة إلى السياسة. ولابد لنا أن نقتطف من كلامه ما يلي:

"اعتقدت أنني ولدت لخدمة الناس وأن علي أن أكرس جهدي لهم. فسألت نفسي عن أكثر الأمور نفعًا للناس وعن المهمات التي يجب عليَّ القيام بها. وبعد بحث لم أجد ما هو مفيد أكثر من الفنون والاختراعات التي ترقى بحياة الإنسان. وقد تصورت أن من يكتشف شيئًا هو الباسط الحقيقي للمملكة الإنسانية في هذا الكون وهو محطم القيود التي تكبل الإنسان فيظل عبدًا لها. وكانت ميولي وطبيعتي تربطاني بالبحث عن الحقيقة. لكن لم يكن لدي أي رغبة في البحث عن الجديد أو كراهية كل ما هو قديم لأي سبب كان.

وقد أثر مولدي وأثرت تربيتي علي واتجهت بي إلى السياسة وليس إلى الفلسفة. فقد انغمست في السياسة منذ طفولتي وكنت أشعر أن واجبي تجاه بلادي يستدعي

---

(١) - تم تدمير ٥٠ سفينة أسبانية في الحرب بينها وبين بريطانيا وهولندا في بحر الشمال (الحرب الأنجلو أسبانية). وقد وقعت تلك الحرب في الفترة ١٥٨٥-١٦٠٤م. (المترجم)

مني تضحيات خاصة. كما كنت أتمنى أن يؤدي عملي في السياسة إلى تحقيق مهام مفيدة لبلادي وبذلك اتجهت للسياسة."

إلا أن أباه مات فجأة فاضطر فرانسيس بيكون إلى ترك عمله والعودة إلى لندن. فوجد "بيكون" نفسه فقيرًا ويتيمًا في تلك المدينة. فلم يستطع أبوه تكوين أي ثروة قبل وفاته ليرثها. وكان "بيكون" معتادًا على حياة الترف والرفاهية، فوجد صعوبة في التكيف مع الحياة البسيطة التي فرضتها عليه الظروف الجديدة. كما أن محاولاته للعودة إلى العمل السياسي لم تفلح. ويعتقد أنه أسرف في إظهار الولاء فيما أرسل من رسائل لبعض اللوردات طلبًا للعودة إلى العمل السياسي وهذا أمر لا يجدي في السياسة.

إلا أن نجمه قد صعد بعد ذلك دون أن يساعده أحد. لكن كل خطوة إلى أعلى كلفته عدة سنوات من عمره. وفي عام ١٥٨٣م انتخب عضوًا في البرلمان وأعاد ناخبوه المحبين له انتخابه الدورة تلو الأخرى. وكان فصيحًا وخطيبًا مفوهًا وقد قال عنه الشاعر الكبير في ذلك العصر "بن جونسون" أنه لم يجد من هو أكثر من "بيكون" فصاحة وبلاغة. حتى أن مستمعيه كانوا يخسرون الشيء الكثير لو سعلوا أو حولوا أبصارهم عنه للحظات.

وكان هناك من أصحاب الجاه من هو سخي جدًا مع بيكون، وهو إيرل "أسيكس" الذي فشلت الملكة إليزابيث في حبها له فتحول الحب إلى كراهية. وفي عام ١٥٩٥م أهدى "أسيكس" لـ"بيكون" ضيعة جميلة في "توكينهام" لأنه لم يستطع تدبير عمل سياسي مناسب له. وكانت هدية عظيمة يفترض أنها تجعل "بيكون" يشعر بالعرفان بالجميل طوال حياته، لكن ذلك لم يحدث. فقد حاول "أسيكس" بعد عدة سنوات أن يخلع إليزابيث، ويَرفع ولي عهدها للعرش. فتوالت رسائل "بيكون" على "أسيكس" ليحاول منعه من ذلك. وعندما فشل في إقناعه، قال له إن ولاءه للملكة يعلو على عرفانه بالجميل تجاهه. لكن "أسيكس" لم يستجب وقام بمحاولته وفشل وألقي القبض عليه.

ألح بيكون كثيرًا على الملكة إليزابيث أن تعفو عن صديقه "أسكس" مما اضطر الملكة إلى أن تطلب منه التحدث معها في أي موضوع إلا العفو عن "أسيكس". وفيما

بعد، وعندما أفرج عن "أسيكس" مؤقتًا لفترة محدودة، ظل يجمع قوات مسلحة حوله وزحف إلى لندن وحاول إثارة سكانها ضد الملكة. وهنا غضب بيكون بشدة. وتم تعيينه في المحكمة التي ستحاكم "أسيكس"، فترافع ضد صديقه العزيز الذي أحسن إليه.

وقد حكمت المحكمة بإعدام "أسكس" وفقد "بيكون" شعبيته بسبب ذلك لفترة من الزمن. ولذلك عاش بين من يتربصون به لفترة. إلا أنه لم يقلع عن الإسراف وحياة البذخ. وكانت نفقاته تتجاوز دخله دائمًا. وعندما تزوج وهو في الخامسة والأربعين من العمر، أنفق مبلغًا كبيرًا من المهر الذي حصل عليه من زوجته على حفل العُرس. وفي عام ١٥٩٨م ألقي القبض على بيكون لعجزه عن سداد ديونه. إلا أن كل ذلك لم يمنعه من استمرار التقدم، كما أن مواهبه ومعرفته واطلاعه الواسع أهلوه لأن يكون عضوًا في العديد من اللجان. وفتحت الوظائف العليا أبوابها أمامه تدريجيًا. وفي عام ١٦٠٦م عين وكيلاً للمدعي العام، وفي عام ١٦١٣م عين مدعيًا عامًا. ثم في عام ١٦١٨م أصبح رئيسًا للوزراء. وكان عمره ٥٧ عامًا.

• ٣- المقالات:

أوشك "بيكون" على تحقيق حلم "أفلاطون" وهو "الملك الفيلسوف" فقد تقلد أعلى المناصب في الدولة. ونحن نكاد لا نصدق أن ذلك الإنتاج الأدبي الغزير صادر عن ذلك الرجل المشغول دائمًا في حياة سياسية شديدة الاضطراب. وقد عجز "بيكون" عن اتخاذ قرار فيما إن كان يفضل حياة التفكير والتأمل أم الحياة السياسية الصاخبة. وكان يشك أن جمعه بين السياسة والفلسفة قد يؤخر تحقيق ما يصبو إليه من أهداف. يقول عن الجمع بين السياسة والفلسفة: "من الصعب أن نقرر فيما إذا كان الجمع بين التفكير والتأمل والحياة العملية أو الاقتصار على حياة التأمل يضعف العقل ويؤخره كثيرًا."

ثم أدرك "بيكون" أن الدراسة ليست غاية في حد ذاتها، وان المعرفة لا فائدة منها إن لم تكن مقرونة بالعمل. وملاحظته هذه تضع حدًا للفلسفة المدرسية، كما تؤكد على أهمية التجربة العملية والوصول إلى نتيجة، وهذا هو ما يميز المدرسة الفلسفية الإنجليزية التي بلغت أقصى حدودها في الفلسفة "البراجماتية" (المذهب العملي).

وهذا المذهب البراجماتي يرى أن أهمية المبادئ تكمن في نتائجها العلمية. لكن كل ذلك لا يعني أن "بيكون" هجر القراءة وحب الاطلاع والتأمل والتفكير، بل إن أقداره هي التي ساقته إلى عالم السياسة. لكن أول ما نُشر له من أعمال كان بعنوان "مديح المعرفة" ولابد لنا أن نقتطف هنا جزءًا من هذه الرسالة الفلسفية:

"أنا أمتدح العقل ذاته، والعقل هو الإنسان، وليس الإنسان سوى ما يعرف. وما يشعر به العقل من لذة خير من اللذات الحسية؟ والمعرفة فقط تنقي العقل من جميع أنواع الاضطراب والتهيج. وهل هناك سعادة مثل سعادة سمو عقل الإنسان وترفعه عن الفوضى والاضطرابات."

كما أن أفضل مقالاته الأدبية توضح أنه كان لا يزال حائرًا ما بين السياسة والفلسفة. ففي مقال بعنوان "الشرف والشهرة" يقول إن كل درجات الشرف من حق الأعمال السياسية والعسكرية العظيمة، ولم يَذكر شيئًا من ذلك عن الأدب أو الفلسفة. لكنه في مقال "الحقيقة" يقول إن البحث عن الحقيقة ومعرفتها والإيمان بها والتمتع بها خير ما يفعله الناس.

كما أن مقالاته الفلسفية تقترب من المكيافيلية[1] أكثر منها إلى المسيحية. يقول: "إننا مدينون لميكافيلي بالفضل لأنه أعلن بوضوح وبدون أي مواربة ما يقوم به الناس ولم يتكلم عما ينبغي أن يفعلوه." كما أن "بيكون" يوازن بين أقواله وأفعاله، وينصح الناس بمزيج واع من النفاق والأمانة. وذلك لأنه يريد حياة تامة ومتنوعة ومعرفة توسع العقل وتقويه. وهو أيضًا مثل جوته الذي يحتقر المعرفة التي لا تؤدي إلى عمل واقعي. وأن دينك يجب أن يكون مثل دين الملك. وجاء ذلك على الرغم من أنه اتهم بالإلحاد أكثر من مرة مع ما تتسم به فلسفته من اتجاه دنيوي وعقلي.

وقد دافع "بيكون" عن نفسه عندما اتهم بالإلحاد فقال: "قد لا اعتقد في صحة

---

(١) - المكيافيلية طبقًا لتعريف قاموس أكسفورد لها هي «توظيف المكر والخداع في الكفاءة السياسية أو السلوك العام»، وهو أيضًا مصطلح يعبر عن مذهب فكري سياسي أو فلسفي يمكن تلخيصه في عبارة «الغاية تبرر الوسيلة» وتنسب إلى الدبلوماسي والكاتب نيكولو مكيافيلي الذي عاش في عصر النهضة الإيطالية، وكتب عن هذا المذهب في كتاب «الأمير». وقد وردت تلك العبارة في ذلك الكتاب الشهير. وقد تم ترجمته إلى اللغة العربية وصدر عن مكتبة ابن سينا في القاهرة في طبعتين إحداهما تحتوي على نص الكتاب فقط، والأخرى تحتوي على نص الكتاب ودراسات نقدية له مع ترجمة كاملة لكتاب "ضد مكيافيلي" للملك فريدريك الثاني ملك بروسيا. (المترجم)

كل القصص الواردة في الكتب الدينية إلا أنه لا يمكن أن أعتقد أن هذا الكون بلا إله مدبر لشئونه. فقليل من الفلسفة يقترب بعقل الإنسان من الإلحاد، أما التعمق فيها فيزيده إيمانًا." لكن قيمة ما كتبه "بيكون" في الدين والأخلاق أقل بكثير عن قيمة ما كتبه في النواحي النفسية. كما أنه محلل جيد وصادق النصح للبشرية، يقول: "يكبر الإنسان سبع سنوات في اليوم الأول من زواجه .. وكثيرًا ما نرى أسوأ الأزواج يتزوجون من أفضل الزوجات." ويبدو أنه يقول ذلك لأن أعماله لم تترك له وقتًا للحب ولم يشعر به بقوة أبدًا. لذلك فهو يتعجب من الإفراط في إظهار العواطف ويرى أن المعتز بنفسه لا يرضى بهوان الحب وأنه: "لا يوجد إنسان واحد من عظماء الناس ينجرف للحب بدرجة جنونية، فالأعمال العظيمة والنفوس الكبيرة بعيدة عن الضعف المتمثل في عاطفة الحب."

و"بيكون" يعتز بالصداقة أكثر من الحب، رغم أنه يرتاب في الصداقة أيضًا. ويرى أن "الصداقة نادرة في هذا العالم وخاصة بين الأنداد والمتساويين".

وفي مقال "الشباب والشيخوخة" يرى "بيكون" أن الشباب أقدر على القيام بأعمال المشروعات الجديدة، وأنهم قادرون على تسيير الأعمال وإدارتها بطريقة جيدة. لكنهم يسيئون استخدام الأشياء الجديدة. أما المتقدمون في السن فهم كثيرو الاعتراض والتشاور ولا يحبون المخاطرة. كما أنهم يندمون سريعًا وغير قادرين على متابعة الأعمال لمدة طويلة. كما أنهم يقنعون بالنجاح المتوسط. لذلك فمن المفيد توظيف الشباب وكبار السن للاستفادة مما لدى كل منهما من فضائل.

أما آراؤه السياسية كما وردت في مقالاته، فهو محافظ ومتشدد. وهذا أمر طبيعي فيمن يطمح في الوصول إلى مناصب سياسية عالية في عصر محافظ ومتشدد. فهو يؤيد فكرة وجود حكومة مركزية قوية وأن النظام الملكي هو أفضل أنظمة الحكم. وهو يرى أن أي عمل من الأعمال الحكومية يحتاج إلى ثلاث مراحل وهي: التحضير والفحص والإتمام. وإن كان الأمر عاجلاً تُختصر الخطوة الوسطى. كما أنه لا يخفي ميوله العسكرية ويأسف لتطور الصناعة وتقدمها، فهي تفسد الناس وتبعدهم عن الحرب. كما أنه يكره السلام الطويل لأنه يخمد الروح العسكرية عند الناس. كما أنه يرى أن أفضل طريقة لتجنب قيام الثورات هي استئصال أسباب تلك الثورات. لكن لا

يجب أن يكون ذلك بقمع الحريات أو الاستهانة بالناس أو منعهم من التحدث. كما يرى أن الثورة يسببها نوعان من الإفراط، وهما: الإفراط في الفقر والإفراط في الثروة. أما الأسباب الأخرى للثورات فهي كثيرة ومتعددة ومنها: البدع والضرائب وتغيير القوانين والعادات والظلم الشديد والمجاعات والجنود المسرحون .. إلى غير ذلك من أسباب أخرى.

كما يرى بيكون أن النجاح حليف للحكومات التي يتزعمها الفلاسفة المتعلمون مثل: سيلكا وأنطونيوس وارليوس، لعله كان يرجو من وراء ذلك أن تضيف الأجيال القادمة اسمه إلى هؤلاء الناجحين.

• ٤- الصرح الجديد العظيم:

على الرغم من تركيز "بيكون" فيما حقق من انتصارات في عالم السياسة، إلا أن قلبه كان مع الفلسفة. وكانت الفلسفة رفيقة "بيكون" في منصبه الهام، كما كانت سلوته في سجنه. وقد تأثر كثيراً وبكى بسبب ما وصلت إليه الفلسفة من سمعة سيئة بسبب فلسفة اللاهوت حسب رأيه.

وقد ظل "بيكون" طوال حياته يفكر في تجديد الفلسفة حتى أثناء فترة نجاحه السياسي. واعتزم أن تكون كل دراسته حول تلك المهمة. وأشار إلى أنه سيقدم للقراء، ما يلي:

- أولاً: بعض الكتب الصغيرة التي توضح أسباب ركود الفلسفة وتلخص اقتراحاته لبداية جديدة.
- ثانيًا: يضع تصنيفًا جديدًا للعلوم.
- ثالثًا: وفي الخطوة الثالثة يصف لنا طريقته الجديدة في تفسير الطبيعة.
- رابعًا: يتناول العلوم الطبيعية ويبحث في ظواهر الطبيعة.
- خامسًا: يُظهر الطريقة التي اتبعها السابقون في الوصول إلى الحقائق.
- سادسًا: يتوقع "بيكون" الوصول إلى نتائج علمية معينة كان على ثقة من الوصول إليها. وأخيرًا صور لنا "بيكون" المدينة الفاضلة حسبما يتخيلها والتي ستسعد البشر.

لقد كان هذا المشروع لـ"بيكون" من أعظم المشروعات، حيث اتجه إلى الناحية العملية أكثر من الناحية النظرية. فالمعرفة قوة وليست نقاشًا أو مجرد فكرة نتمسك بها. إنها أعمال علينا القيام بها. وقد عمل "بيكون" لوضع أساس وليس مذهب أو مبدأ. وهنا نسمع ولأول مرة صوتًا جديدًا لعلم جديد.

تقدم العلم:

إذا أراد الإنسان أن ينتج فعليه بالعلم. فنحن لا يمكننا أن نسود هذا العالم إلا إذا درسنا قوانين الطبيعة من حولنا، حتى نكون أسيادًا لها. فجهلنا بها يجعلنا عبيدًا عندها. والعلم هو الطريق إلى السعادة، لكنه طريق شاق ومتعرج ومظلم. لكن ما علينا سوى أن نبدأ دراسة العلوم ونحدد ميادينها المميزة. وكذلك علينا بدء البحث وتمهيده للآخرين في العديد من ميادين العلم.

لقد كرس "بيكون" جهده لمهمة واحدة وهي "تقدم المعرفة". فهو يريد الإحاطة بكل ما يمكن منها وإزالة الستار عما لم يتناوله منها الإنسان من قبل. وهو يرى أن عمله هذا كمن ينظف الأرض الزراعية ويرفع ما فيها من أعشاب ضارة حتى يتمكن من زراعتها. لكنه وقتذاك كان لا يزال في الثانية والأربعين من العمر، وهي سن صغيرة بالنسبة لما يود القيام به من عمل عظيم.

وقد اهتم بيكون أيضًا بعلوم الفسيولوجيا والطب، وأشاد بأهمية الطب في حياتنا، وقال إن الطب يشبه الآلة الموسيقية شجية الألحان. إلا أنه اعترض على عدم اهتمام الأطباء بالتجارب وميلهم إلى استخدام نفس الوصفة كل مرة لمعالجة نفس العرض وغالبًا يكون العلاج من مادة مسهلة. كما انتقد إجراءهم للتجارب الفردية غير المنظمة. وقال إن عليهم تنظيم تجاربهم وتشريح جثث الموتى لاكتساب مزيد من العلم وكذلك تشريح جثث الحيوانات إن كانت هناك حاجة لذلك. وهو أيضًا يرى ضرورة السماح للأطباء بإسراع قدوم الموت للحالات الميئوس من شفائها والتي لم يعد أمامها سوى عدة أيام من الألم الرهيب.

أما عن علاقته بعلم النفس فهو سلوكي، وقد طالب بدراسة شاملة لأسباب ونتائج أعمال الإنسان. كما رغب في التخلص من كلمة "بالصدفة" من القاموس لأنه يرى أنه

لا يوجد ما يحدث بالصدفة. وقد تحدث في كثير من الموضوعات فأوجزها في كلمات قليلة.

وفي كلمات قليلة أيضًا نجده قد وضع علمًا جديدًا وهو علم النفس الاجتماعي، يقول: "يجب على الفلاسفة أن يبحثوا في قوى العرف والعادات والتقاليد وأن يدرسوا طرق المدح والذم والتبكيت والنصح والإنذار وغيرها. وذلك لأن هذه الأشياء تؤثر في الناس وتشكل عقولهم." وهكذا وبعدة كلمات موجزة أشار بيكون إلى أهمية ذلك العلم الوليد.

وفي ثامن كتبه نشأ علم آخر وهو علم النجاح في الحياة. حيث قدم لنا فيه إشارات وتوجيهات مفيدة حول النجاح في الحياة. وأول ما هو مطلوب لتحقيق النجاح هو النجاح في المعرفة، معرفة أنفسنا أولاً ثم معرفة الآخرين. وقد أعد ذلك الكتاب وهو في قمة نجاحه وقبل سقوطه من الحكم.

ويرى بيكون أن علينا أن نعرف كل شيء عمن يحيون بنا من حيث طباعهم وآرائهم وصفاتهم ورغباتهم ونقاط قوتهم ونقاط ضعفهم وكثير من الصفات الأخرى. ويمكننا القيام بذلك في خطوات ثلاث:

١- كثرة الأصدقاء.

٢- الاعتدال بين الحديث بحرية والصمت

٣- عدم الإفراط في اللين والتعامل بطيبة مع الآخرين فهذا يعرضنا للأذى.

والأصدقاء بالنسبة له وسيلة للقوة والوصول إلى السلطة، كما أنه يشارك ميكافيلي الرأي في ضرورة تعدد الأصدقاء. وهذا يفسر لنا سببًا من أسباب سقوطه، وربما أدى نفس السبب إلى سقوط نابليون فيما بعد. وهنا نجد أنه كان يؤمن بمقولة يونانية قديمة وهي: "حب صديقك وتوقع أن يصبح عدوًا لك، واحذر عدوك وتوقع أن يصبح صديقك. ولا تفض لصديقك بالكثير من أهدافك وأفكارك، اسأله أكثر مما تتكلم وعندما تتكلم يكون كلامك عن معلومات وبيانات وليس عن عقائد وآراء."

وهكذا نجد آثارًا لبيكون في كثير من العلوم، فقد توصل بعد بحث طويل إلى أن العلم وحده غير كاف، وأنه لابد من وجود تنسيق وتنظيم للعلم وتوجيهه إلى أهداف

محددة. وفي نهاية الأمر، أحب بيكون الفلسفة أكثر من العلم، فهي وحدها قادرة على تحويل الحياة الحزينة إلى حياة في سلام وتفهم.

والحكومات عند بيكون تعاني بسبب عدم تسلحها بالفلسفة. وارتباط الفلسفة بالعلم مثل ارتباط إدارة الدولة بالسياسة وعلاقتها بها. لذلك فإن السعي وراء ممارسة السياسة نوع من الجنون لأنها انفصلت عن العلم والفلسفة. ومثلما أنه من الخطأ الجسيم أن نعهد بأجسادنا للدجالين طلبًا في الشفاء من الأمراض، فإنه من الخطأ أيضًا أن يدير شئون الدولة دجالون لا يجيدون أي شيء ويريدون الاستفادة فقط من التجارب والخبرات التي تمر بهم أثناء الحكم.

وهكذا نجد أن "بيكون" مثل أفلاطون ومثل كثير من الناس، يُعَظم شأن الفلسفة ويعتبرها طوق نجاة. لكن بيكون أدرك الحاجة إلى العلم والحاجة إلى وجود جيش قوي. لكن عقلًا واحدًا لا يستطيع إدارة كل شيء ويفهم في كل العلوم حتى ولو كان عقل "بيكون" نفسه. ولذلك فقد شعر "بيكون" بالوحدة وبالحاجة إلى وجود من يساعده في مشروعه. إلا أنه لم يجد دعمًا من أصدقائه.

قال "بيكون" بضرورة تأميم العلم حتى يتمكن العلماء من غزو الطبيعة وزيادة قدرات الإنسان. ولكي يحقق هذا الهدف توجه إلى الملك "جيمس الأول" محاولاً إقناعه بذلك بكل طرق التملق التي كانت محببة لذلك الملك. وكان يتوقع أن يقوم الملك (العالم المعتز بعلمه في نفس الوقت) بعمل شيء مفيد حتى يتم تنفيذ الخطط التي وضعها "بيكون" واعتبرها مهام ملكية. وكان يرى أن قيام رجل واحد بهذه المهمة غير مجد، حيث سيكون كالتمثال الذي يشير إلى طريق ما لكنه لا يستطيع السير فيه. لذلك كان لابد من مساعدة ملكية كبيرة حتى يتم مشروع "بيكون" خلال سنوات معدودات.

وقد رأى "بيكون" أننا بحاجة إلى منطق جديد أفضل من ذلك المنطق الذي وضعه أرسطو، وذلك حتى يتناسب مع العالم الجديد الأكثر اتساعاً. وهكذا قدم لنا "بيكون" أعظم كتبه.

البحث الجديد:

يقول أشد النقاد تعسفًا مع "بيكون" إن أعظم كتاب وضعه هو كتابه الأول عن

"البحث الجديد". وقد أعاد في هذا الكتاب الروح إلى علم المنطق بشكل جديد لا يجاريه فيه أحد. حيث جعل الاستنتاج يعتمد على التجربة. ولابد لكل من يريد دراسة المنطق أن يقرأ هذا الكتاب. يقول بيكون: "لقد أجدبت الفلسفة لفترة طويلة لأنها كانت تحتاج إلى طريقة جديدة لتخصيبها، كما أخطأ فلاسفة اليونان بشدة عندما خصصوا وقتًا كبيرًا للنواحي النظرية وأهملوا الملاحظة والبحث بتخصيص وقت قليل جدًا لها." كما أشار إلى الأخطاء التي وقع فيها القدماء فأبعدتهم عن التقدم في كل العلوم. ورأى أن مشكلة المنطق الأولى هي تتبع تلك الأخطاء والتخلي عنها، وهذه الأخطاء هي:

أول هذه الأخطاء هو أوهام القبيلة، فقد زعم الإنسان أنه مقياس لجميع الأشياء، بينما العكس هو الصحيح لأن إدراك الإنسان الحسي والعقلي تصوير لنفسه وليس تصويرًا للكون. وعقل الإنسان يشبه المرآة المقعرة التي تعكس خواصها على كل ما تعكس صورته فتجعله يبدو أقبح.

أما الخطأ الثاني فهو محاولة إرغام الآخرين على القبول بصحة ما نراه نحن صحيحًا، وقد قدم لنا قصة رجل حاولوا إرغامه على الإيمان بآلهة وثنية، فأدخلوه إلى معبد به لوحات فنية. كل لوحة منها مقدمة كنذر من أحد الناجين من الغرق في سفينة كنوع من التقرب إلى تلك الآلهة. وعندما طلبوا منه في النهاية أن يعترف بقوة الآلهة وفائدة النذور، قال لهم: "أين لوحات الغرقى؟ ولماذا غرقوا رغم ما سبق لهم من تقديم نذور وقرابين للآلهة من قبل؟

أما النوع الثالث من الأخطاء فهو أوهام السوق. حيث يتعامل الناس مع بعضهم بالكلمات التي قد يساء فهمها وقد يساء استعمالها أيضًا. وسوء استخدام الكلمات وعدم مناسبتها للتعبير عما نريد يعطل العقل بشدة. وقد يكون ذلك مقصودًا من بعض الناس لإخفاء جهلهم الواضح. وقد يكون من أعظم ما تنجزه الفلسفة الحديثة منع الكذب.

والنوع الأخير من الأخطاء هي تلك الأخطاء التي ورثناها عن الفلاسفة وناتجة عن نظريات وبراهين وأدلة خاطئة قدموها إلينا. ويسميها "بيكون" بأوهام المسرح. فكل

ما تلقيناه عن الفلاسفة القدامى ما هو إلا روايات مسرحية، إنهم يصورون العالم من حولهم بما فيه من مشكلات.

وطالما بقيت تلك الأوهام في حياتنا فلن نتقدم نحو الحقيقة ولن نحلق إلى أعلى. فنحن بحاجة إذن إلى طريقة جديدة للتفكير ووسائل جيدة للفهم. ومثلما بقيت الهند مجهولة لنا قبل اختراع البوصلة، ستظل الفنون على حالها دون تقدم إن لم تتقدم الاختراعات والاكتشافات العلمية. ومن العار أن يظل العالم مغلقًا على ما تم اكتشافه قديمًا فقط في وقت اتسعت فيه الاكتشافات الجغرافية بدرجة كبيرة.

أما مشكلاتنا الناتجة عن العقائد والاستنتاجات التي تحول بيننا وبين الحقيقة. فهي تحدث لأننا لا نتوصل إلى حقيقة جديدة ونكتفي بما لدينا من بعض الآراء التي نعتبرها من المسلمات التي لا نزاع فيها.

فإن كنا ندرس الرياضيات من أجل حساب الكميات والاستعانة بها في بناء الجسور والمباني، فإننا ندرس أيضًا علم النفس حتى نجد طريقًا نسير فيه في هذا المجتمع. فإن استطاع العلم كشف صور الأشياء لنا كشفًا وافيًا، يصبح العالم حينذاك «مادة خام» صالحة لإقامة المدينة الفاضلة التي يريد إقامتها.

مدينة العلم الفاضلة:

بإتقان العلم والوصول به إلى درجة الكمال كما أوضح "بيكون"، وكذلك إتقان النظام الاجتماعي وسيطرتنا على العلم وإشرافنا عليه، يمكننا خلق المدينة الفاضلة التي يعلق الإنسان عليها الآمال وطمح إلى تحقيقها منذ آلاف السنين. وهذا هو شكل العالم كما وصفه لنا في كتابه الأخير الموجز وهو "أطلنتس الجديدة" وقد نشره قبل وفاته بعامين. ويرى الكثير أن هذا الكتاب هو أعظم ما قدمه "بيكون" للعلم.

وفي هذا الكتاب رسم "بيكون" صورة المجتمع الذي وجد فيه العلم مكانه الصحيح الجدير به كسيد لكل شيء. وقد كانت هذه المدينة الفاضلة التي يصفها "بيكون" هدفًا سعى من أجله العلماء طوال ثلاثة قرون.

وإن كان "أفلاطون" قد سبق وحدثنا عن أسطورة "أطلنتس القديمة" التي غرقت في البحار الغربية. فإن "بيكون" شبه أمريكا الجديدة التي اكتشفها "كولومبس" بقارة أطلنتس القديمة التي غرقت. فالقارة لم تغرق، ولكن فقد الناس شجاعة تحدي السفر

الطويل في البحر. وهناك في تلك القارة الجديدة صور لنا "بيكون" ما يراه في المدينة الفاضلة.

بدأ "بيكون" الوصف ببراعة وبساطة، فقال: "أبحرنا إلى الصين واليابان عبر البحر الجنوبي، وظلت السفن لعدة أسابيع على سطح الماء دون الوصول إلى بر. وبدأت مؤونة المغامرين في النفاد، وهبت ريح عاتية. فبدأ التوفير في الطعام وانتشرت الأمراض بين الركاب. وعندما استسلم الجميع وظنوا أنهم سيلقون حتفهم، لم يصدقوا عيونهم حين رأوا جزيرة جميلة تلوح في الأفق. وكان بالجزيرة أناس متحضرون يرتدون ثيابًا بسيطة، ويظهر عليهم الذكاء.

سمح أهل الجزيرة لملاحي السفينة بالبقاء فيها لحين شفاء الجميع رغم أن قانون الجزيرة لا يسمح بهذا. وخلال فترة الاستشفاء اكتشف ملاحو السفينة الأشياء الغامضة في تلك الجزيرة، وقال لهم أحد سكانها إن ملكًا حكم الجزيرة لمدة ١٩٠٠ عام. حيث لا تزال ذكراه في القلوب. وكان الملك اسمه سليمان وقد وضع تشريعات وقوانين لهذه الجزيرة الجميلة. كان صاحب قلب كبير ومحب لشعبه. وقد أنشأ معهدًا وأسماه "بيت سليمان" فكان أهم ما ميز هذه المملكة.

وقد وصف "بيكون" بيت سليمان وصفًا خلابا دعا الكثيرين للإشادة به، ومنهم من قال إنه لم يقرأ أفضل من ذلك الوصف. وقد امتدحه كثير منهم.

وبيت سليمان في "أطلنتس الجديدة" مثل البرلمان في لندن، وهو مقر حكومة الجزيرة. وهو لا يضم سياسيين منتخبين ولا تلقى فيه الخطب ولا تدخله أحزاب ولا تعقد فيه اجتماعات سياسية ولا تتلى فيه بيانات التملق السياسي ولا توزع منشورات على ناخبين ولا تتردد فيه أكاذيب المرشحين في الانتخابات. ومع ذلك فأبوابه مفتوحة أمام الجميع. ومن يستطيع الوصول بخبراته ومواهبه ومؤهلاته يجلس في مجلس الدولة. وهناك تتكون الحكومة التي يديرها المختصون، كل في تخصصه. ويتولى أمورها المهندسون والمعماريون والفلكيون وعلماء طبقات الأرض والأطباء والكيمائيون ورجال الاقتصاد وعلماء الاجتماع وعلماء النفس والفلاسفة.

كما أن الحكام في تلك البلاد الفاضلة لا يركزون على السيطرة على الشعب بل السيطرة على الطبيعة والتعامل معها. لذلك سنجد الحكام مشغولين بدراسة النجوم

وكيفية الاستفادة من الماء الساقط من الشلالات وتطوير الصناعة ومعالجة الأمراض وإجراء التجارب على الحيوانات لزيادة الاستفادة من العمليات الجراحية.

كما يتم التركيز على إنعاش التجارة الخارجية والاستمرار في أبحاث الطيران لسرعة التنقل. وترسل تلك الدولة الفاضلة مبعوثيها لأنحاء العالم ويعود المبعوثون بما جمعوه من أفكار مفيدة ويقدمون تقاريرهم ومشاهداتهم إلى المسئولين في "بيت سليمان".

وعلى الرغم من ذلك الوصف المختصر، إلا أننا نجد أنها تتشابه مع كل وصف لأي مدينة فاضلة أخرى سبق وصفها. فلماذا بقيت هذه المدينة حلمًا بعد كل ذلك التجسيد الوصفي الذي تكرر عدة مرات؟ السبب في ذلك أن المفكر لا يحاول تنفيذ ما يقوله ميدانيًا، فيخرجه إلى عالمنا الحقيقي. كما أن طموح المسئولين وحبهم للتملك والمال تغلب على أمنيات الفلاسفة والمفكرين، كما أن العلم لم ينضج بعد ليصل إلى حد النضج والوعي التامين.

• ٥- نقـــد:

والآن .. هل تستحق فلسفة "بيكون" تقديرنا ؟ وهل هناك جديد فيها ؟

يرى الكاتب الإنجليزي المشهور "مالكولي" أن الاستقراء المنطقي الذي جاء به "بيكون" موضوع قديم جدًا لا يستحق كل ذلك الاهتمام والحفاوة. كما أن طريقة الاستقراء التي وصفها "بيكون" يقوم بها كل الناس صباحًا ومساء. فمن يأكل فطيرة باللحم ويمرض بعدها، ثم يأكلها مرة أخرى فيما بعد ويمرض، يلاحظ أنه كلما أكل من تلك الفطائر كثيرًا أصيب بالمرض، وأن المرض يقل كلما قلل من أكله منها، فيربط بين الإصابة بالمرض وأكل هذا النوع من الطعام. وهذا الشخص يستخدم طريقة "بيكون" الاستقرائية في التعامل مع مرضه. وقد يكون الشخص قليل الملاحظة أو غير مهتم فيظل يأكل من نفس نوع الطعام ولا يلاحظ شيئًا.

لكن طريقة الاستقراء هذه لم يضعها "بيكون"، فقد استخدمها من قبله أرسطو. إنها طريقة أشار إليها كثيرون واستخدموها في أبحاثهم. وكان أرسطو يمارس الاستقراء عندما لا يجد أمامه حلًا آخر يقوم به. أما سقراط فلم يمارس الاستقراء كثيرًا مثلما مارس التحليل والتعريف وتمييز الكلمات والأفكار.

كما أن "بيكون" لم يدع أنه جاء بجديد، فقد تناولت يداه كل شيء حوله وأضفت عليه لمسات الجمال، مثل شكسبير تمامًا. أما الجديد الذي جاء به فهو طريقة التناول.

لم يحتقر "بيكون" ملاحظات الآخرين وكان يستفيد من كل منهم. وقد اعترف بفضل الآخرين عليه. ولكن هل الطريقة الاستقرائية التي استخدمها "بيكون" صحيحة؟ وهل هي أكثر الطرق فائدة للعلم؟ بالطبع لا. لم يستخدم العلم طريقة "بيكون" المعقدة في جمع المعلومات، بل اتبع العلم الطريقة الأسهل وهي الافتراض والاستدلال والتجربة.

وفي المقابل نجد أن "بيكون" نفسه توقع الاستغناء عن طريقته، وأن ممارسة العلم بالطريقة علمية تؤدي إلى وسائل أفضل في البحث. إلا أنه قال أكثر من مرة أن ذلك الاتجاه سيحتاج إلى أكثر من جيل حتى ينضج ويصبح صالحًا. وحتى أشد المعجبين بما قام به "بيكون" يعترفون أنه انشغل بوضع قانون للعلم ولم يتابع ما يجري من أبحاث علمية في عصره. وقد قلل من قيمة ما توصل إليه بعض علماء عصره ولم يعلم بوجود البعض الآخر. وكان يحب الحديث أكثر من البحث. وعند موته ترك أعماله مبعثرة وغير مترابطة تفيض بالتكرار والتناقض والطموح الزائد. وذلك لأن الأمل يطول والزمن يمر بسرعة وهذه مأساة كل العقول الكبيرة.

أما مظاهر العظمة والضعف عند "بيكون" فتكمن في حبه للوحدة ورغبته بمد معرفته العلمية إلى عشرات العلوم. وكان يحلم بأن يكون مثل أفلاطون، واقف على صخرة عالية ليرى من فوقها كل شيء. إلا أنه كلَّ وتعب من كثرة المهام التي أرهق بها نفسه وفشل في الكثير مما تطوع للقيام به. كما أنه لم يستطع دخول أرض العِلم الموعودة واستطاع فقط الوقوف على حافتها. وقد حركت أعماله عقول الكثير من البشر، وإن كان الملك جيمس قد رفض تقديم أي دعم للعلم وسخر من كلام "بيكون"، إلا أنه وجد من يؤمن بكلامه فيما بعد حيث أنشأ رجال "الجمعية الملكية" في عام ١٦٦٢م "جمعية العلماء" وجعلوا "بيكون" ملهمًا لهم. وبدأوا العمل في موسوعة أهدوها إلى "بيكون" وقالوا إننا لو نجحنا في وضع الموسوعة، فإننا سنكون مدينين بالكثير لـ"بيكون" لأنه هو من وضع خطة القاموس العالمي للعلوم والفنون في وقت خلا من العلوم والفنون.

وقد أطلقوا على "بيكون" اسم أعظم وأبلغ وأوسع الفلاسفة علمًا. ونشر مؤتمرهم أعمال "بيكون" على نفقة الدولة. وسارت جميع الأعمال الفكرية البريطانية على فلسفة "بيكون". وقد أوحى ميله إلى فهم العالم بطريقة ميكانيكية إلى سكرتيره "هوبز" بنقطة البداية في مذهبه المادي. كما أوحت طريقته الاستقرائية إلى "جون لوك" بفكرة علم النفس التجريبي المرتبط بالملاحظة والمتحرر من اللاهوت والميتافيزيقا[1]. وكان "بيكون" يعبر عن جميع الأوروبيين عندما حولوا قارتهم من غابات إلى أرض لكنوز الفن والعلم وجعلوا منها مركزًا عالميًا.

ويرى "بيكون" في أحد أفضل كتاباته النثرية أن هناك ثلاثة أنواع من البشر، الأول هم الطامعون في بسط نفوذهم على بلادهم وهم أحط أنواع البشر وأسوأهم. والنوع الثاني هم من يسعون إلى بسط نفوذ بلادهم وسيادتها على شعوب أخرى، وهم أكرم من النوع الأول. لكنهم يعانون من نفس القدر من الشراهة والنهم. أما النوع الثالث وهم القلة، فهم أولئك الطامحون إلى بسط سيادة الجنس البشري على الكون. وهذا النوع من الطموح أكثر نبلاً وأعظم نفعًا من النوعين الآخرين.

• ٦- خاتمة:

في العصر الذي عاش فيه "بيكون" كان من المألوف أن يقبل القضاة الهدايا ممن ينظرون قضاياهم. ولم يكن "بيكون" شاذا عن عصره، فقد عينه الملك مستشارًا (أعلى منصب في الدولة) لمدة ثلاثة أعوام. وهناك فاجأته الضربة القاضية. حيث اشتكاه أحد المتقاضين بأنه تقاضى منه مالاً ليفصل في قضيته لصالحه. فأدرك "بيكون" أن الأمر خطير وأن أعداءه سيستغلون الموضوع، فلزم بيته. وطالب الجميع باستقالته، فاعترف للملك الذي أمر بوضعه في السجن. لكن بعد يومين عفا الملك عنه وأعفاه من الغرامة

---

(١) - الميتافيزيقا: هي أحد أفرع الفلسفة التي تهتم بدراسة المبادئ الأولى والوجود. أي أنها فرع من الفلسفة يتعلق بالطبيعة الأساسية للواقع، ويُسمى أيضًا علم ماوراء الطبيعة. وهو يهدف إلى تقديم وصف منظم للعالم وللمبادئ التي تحكمه. وخلافاً للعلوم الطبيعية التي تدرس مظاهر محددة من العالم، تُعد الميتافيزيقا علمًا استقصائيًا أكثر توسعاً في المظاهر الأساسية للموجودات. ويعتمد علماء الميتافيزيقا على أنماط تحليلية تعتمد بدورها على المنطق الخالص عوضاً عن النهج التجريبي الذي يتبعه علماء الطبيعيات. وقد ركز التكهن الخاص بما وراء الطبيعة على مفاهيم أساسية كالفضاء والزمن، والسببية، والهوية والتغيير، والاحتمالية والضرورة، والمتفردات والعموميات، والعقل والجسد. (المترجم)

المالية الباهظة. ومن الغريب أن ذلك لم يؤثر في معنوياته فقال بعد أن خرج من السجن: "كنت أعدل قضاة إنجلترا خلال خمسين عامًا مضت."

التزم "بيكون" الحياة في بيته طوال السنوات الخمس التي تبقت من عمره. وكان يتألم من الفقر الذي لم يعتد عليه ولكنه وجد سلوته في الفلسفة. فكتب في تلك الفترة أعظم أعماله، كما قام بتنقيح "المقالات" وأدخل عليها موضوعات جديدة مثل "تاريخ هنري السابع". وكان يشعر بالندم لأنه لم يبتعد عن السياسة في وقت مبكر ويتفرغ للأدب والعلم.

ظل "بيكون" مهتمًا بعمله حتى الدقيقة الأخيرة من عمره، وقد أوضح في مقال له بعنوان "الموت" أنه يرغب في موت بلا ألم ولا مرض. وقد تحقق له ما أراد، فقد كان مسافرًا من لندن إلى "هاي جيت" في شهر مارس من عام ١٦٢٦م. وأثناء السفر فكر في أمر علمي أراد أن يجربه. وكانت الفكرة تدور حول المدة اللازمة لحفظ اللحم من الفساد إن وضعناه تحت الثلج. فتوقف واشترى دجاجة وذبحها ووضعها في الثلج. إلا أنه شعر بقشعريرة وضعف، وأدرك أنه لن يستطيع العودة إلى لندن، فطلب أن ينقلوه إلى بيت اللورد "أورندل" وكان قريبًا من المكان الذي توقف فيه.

وهناك في بيت اللورد التزم "بيكون" الفراش إلا أنه لم يفارق الحياة وشهد نجاح تجربته وسعد بها كثيرًا. وكانت آخر كلماته تدور حول الحمى التي جعلت جسده واهنًا وغير قادر على محاربة المرض. وفي يوم ٩ أبريل ١٦٢٦م مات "بيكون" عن خمس وستين عامًا. وقد كتب وصية بها عبارة تفيض بالفخر والتباهي وهي:

"أسلم روحي لله ... وجسدي سيدفن بهدوء ... أما اسمي فقد تركته للأجيال التالية ولكل الأمم."

وقد قبلته كل الأجيال والأمم.